

الفكر والتفكير في ضوء الكتاب والسنة

د. محصة عبدالعزيز هويدي *

أكثر الناس يعرفون فضل الفكر والتفكير ، ولكنهم يجهلون كيف يفكرون؟ كل الناس يفكرون ، فالفكر كتيار الماء وأمواجه في البحر ، حين يمر على نقطة معينة فيه ، وكذلك الأفكار ، تجري على بؤرة الشعور ، ويتتابع بعضها خلف بعض تترى ، تارة ببطء وعمق ، وتارة بسرعة وسطحية .

نعم كل الناس يفكرون ، لكن بعضهم يفكر في عاجل لا يفيد ، أو يفيد ، وبعضهم يفكر في أجل مفيد ، بعضهم يفكر في الشر ، وبعضهم يفكر في الخير . بعضهم يفكر في علوم الدنيا ، وبعضهم يفكر في علوم الدين ، بعضهم يفكر في اللهو واللعب ، وبعضهم يفكر في ملكوت السماوات والأرض ، وما خلق الله من شيء .

وهذا النوع من التفكير هو الذي نعنّى به في هذا البحث ، على أمل أن نعود إلى مجالات التفكير الأخرى في بحوث قادمة - إن شاء الله - ، إذ لو أراد مريد أن يحصر فنون الفكر ومجاريه لم يقدر عليها ، لأن مجاري الفكر غير محصورة ، وثمراته غير متناهية ، كما يقول الغزالي (١) .

* مدرس الحديث وعلومه ، بكلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية - جامعة قطر -

(١) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ، ١٠ / ١٧٠

التذكر والاعتبار والنظر ، والتدبر والتأمل والتفكر :

ألفاظ متقاربة ، يحاول الغزالي أن يفرق بينها ، فيقول :

التدبر ، والتأمل ، والتفكر ، عبارات مترادفة على معنى واحد ، ليس تحتها معان مختلفة ، أما التذكر والاعتبار والنظر فهي مختلفة المعاني ، وإن كان أصل المسمى واحداً ، كما أن اسم الصارم والمهند والسيف ، يتوارد على شيء واحد ، ولكن باعتبارات مختلفة ، فالصارم : يدل على السيف ، من حيث هو قاطع ، والمهند : يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه (وهو الهند ،) ومنه قول كعب :

إن الرسول لسيف يُستضاء به مهند من سيف الله مسلول (٢) .

والسيف يدل دلالة مطلقة عليه ، من غير إشعار بهذه الزوائد ، وكذلك الذكر والاعتبار والنظر .

فالتذكر : استحضار معرفة سابقة ، للانتقال منها إلى معرفة أخرى .

والاعتبار والتدبر : التفكير في المعرفة السابقة ، لاستخلاص العبر منها .

والنظر والتأمل والتفكر : هو طلب المعرفة السابقة ، للوصول إلى معرفة جديدة ، فكل متفكر متذكر ، وليس كل متذكر متفكراً ، وفائدة التذكار إحضار المعارف إلى بؤرة الإدراك ، وفائدة التفكير تكثير العلم ، واستجلاب معرفة ليست حاصلة .

والمعارف إذا اجتمعت في القلب ، وتفاعلت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى ، فإذا حصلت معرفة أخرى ، وتفاعلت مع معرفة أخرى ،

(٢) شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح سيدنا رسول الله ﷺ ، ص ٢٧

حصل من ذلك نتائج أخرى ، وهكذا تتكاثر النتائج ، وتتمادى العلوم والمعارف والفكر إلى غير نهاية ، والسبب في أن أكثر الناس مُنعوا الزيادة في العلوم : أنهم فقدوا رأس المال ، وهو المعارف التي تثمر العلوم (٣) .

العقل والقلب والفؤاد :

في كتب اللغة : العقل : الحجر ، والنهى ضد الحمق ، والجمع عقول ، يقال : عقل يعقل عقلاً ، ومعقولاً ، ورجل عاقل ، وهو الجامع لأمره ، ورأيه ، وقيل : العاقل الذي يحبس نفسه ، ويرُدّها عن هواها ، والعقل : التثبت في الأمور ، والعقل : القلب ، والقلب : العقل ، وسمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك ، أي يحبسه ، وقيل : العقل هو التمييز الذي به يتميز الإنسان من سائر الحيوان ، وعقل الشيء يعقله عقلاً : فهمه (٤) .

فالعقل إذن جهاز الإدراك ، أو ملكة الإدراك التي يناط بها الفهم والتصور (٥) .

والقرآن الكريم يتناول العقل من حيث وظيفته ، التي هي التعقل والتفهم والتدبر ، فيدعو إلى ذلك ، وينعي على من لم يستخدمه الاستخدام الصحيح ، من حيث سلامة المقدمات ، للوصول بها إلى سلامة النتائج ، فيقول جل شأنه :

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٦) .
﴿ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهٖ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٧) .

(٣) إحياء علوم الدين ١٠ / ١٦٧ - ١٦٨ بهامش الإتحاف ، بتصرف

(٤) لسان العرب ، لابن منظور ٩ / ٣٢٦ ، مادة عقل

(٥) التفكير فريضة إسلامية ، ص ٨

(٦) سورة البقرة ، آية : ٢٤٢

(٧) سورة الأنعام ، آية : ١٥١

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٨) .
 ﴿ أَفَبِلَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٩) .
 ﴿ وَلَهُ أُخْتَلِفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٠) .
 ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴾ (١١) ﴿ وَاللَّيْلُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٢) .
 ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١٣) .
 ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (١٤) .
 ﴿ وَتَضْرِبُ رِيفَ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١٥) .
 ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١٦) .

أما القلب :

ففي كتب اللغة : هو مضغعة من الفؤاد ، معلقة بالنياط ، وقال ابن سيده :
 القلب الفؤاد . وقد يُعبر بالقلب عن العقل ، قال الفراء في قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ (١٦) . أي عقل ، قال الفراء : وجائز في العربية أن
 تقول : مالك قلب ، وما قلبك معك ، تقول : ماعقلك معك ، وأين ذهب قلبك ؟
 أي أين ذهب عقلك ؟ وقال غير الفراء : « لمن كان له قلب » أي تفهم وتدبر ،
 وقيل : القلوب والأفئدة قريبان من السواء . قال الأزهري : ورأيت بعض العرب

(٨) سورة يوسف ، آية : ٢

(٩) سورة الأنبياء ، آية : ٦٧

(١٠) سورة المؤمنون ، آية : ٨٠

(١١) سورة الصافات ، آية : ١٣٨

(١٢) سورة الملك ، آية : ١٠

(١٣) سورة العنكبوت ، آية : ٤٣

(١٤) سورة البقرة ، آية : ١٦٤

(١٥) سورة الأنفال ، آية : ٢٢

(١٦) سورة ق ، آية : ٣٧

يسمى لحمة القلب كلها - شحمها وحجابها - : قلباً ، وفؤاداً . قال : ولم أرهم يفرقون بينهما ، ولا أنكر أن يكون القلب هي العلقة السوداء في جوفه (١٧) .

والقرآن الكريم يتناول القلب كجهاز للإدراك ، وآلة للفهم ، فيقول جل شأنه : ﴿ فَإِنَّهُمْ نَرَاهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (١٨) .

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ (١٩) .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَبَصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ (٢٠) .

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ (٢١) .

﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ (٢٢) .

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ (٢٣) .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٢٤) .

القلب في السنة :

وكذلك يعبر رسول الله ﷺ بالقلب على أنه جهاز التفكير والتدبر والعقيدة ، فيقول - ﷺ - : « لا ومقلب القلوب » (٢٥) ، وتقلب الشيء : تغييره من حال إلى حال ، وتقلب القلوب : صرفها من رأي إلى رأي (٢٦) ، ويقول عليه

(١٧) لسان العرب ٢٧١ / ١١ مادة قلب

(١٨) سورة البقرة ، آية : ٩٧

(١٩) سورة البقرة ، آية : ٨٨

(٢٠) سورة الأنعام ، آية : ٤٦

(٢١) سورة الأنعام ، آية : ٢٥

(٢٢) سورة الأنفال ، آية : ٢٤

(٢٣) سورة الأعراف ، آية : ١٧٩

(٢٤) سورة الحج ، آية : ٤٦

(٢٥) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، ١٦٩ / ٨ ، باب (١١) ، مقلب القلوب

(٢٦) فتح الباري لابن حجر ، ١٥٢ / ٢٨

الصلاة والسلام : قال تعالى : «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» (٢٧) ، ويقول : «وَرَبُّ مَصْلٍ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ» (٢٨) ، ويقول : «الحلال بَيْنَ ، والحرام بَيْنَ ، وبينهما مُشَبَّهَاتٌ ، لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى ، يوشك أن يواقع ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله محاربه ، ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب» (٢٩) .

وأما الفؤاد ففي كتب اللغة :

الفؤاد : القلب ، وقيل : وسطه ، وقيل : غشاء القلب ، والقلب حبته وسويداؤه ، والجمع أفئدة (٣٠) .

والقرآن الكريم يتناول الفؤاد على أنه موئل الفكر ، وجهاز الإدراك أيضاً ، فيقول جل شأنه :

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣١) .

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمِ مُوسَىٰ قَلَرًا﴾ (٣٢) .

﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (٣٣) .

﴿وَلِنُصَوِّتَ إِلَيْهِ أَفْعِدَةَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ (٣٤)

(٢٧) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ٨/ ١٩٧-١٩٨ ، باب ٣٥ ، قوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾

(٢٨) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ٥/ ١١١ ، باب ٦ ، بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن

(٢٩) أخرجه البخاري في الإيمان ١/ ١٩ ، باب (٣٩) ، فضل من استبرأ لدينه

(٣٠) لسان العرب ، ١/ ١٦٦ مادة فاد

(٣١) سورة الإسراء ، : آية : ٣٦

(٣٢) سورة القصص ، : آية : ١٠

(٣٣) سورة الفرقان ، : آية : ٣٢

(٣٤) سورة الأنعام ، : آية : ١١٣

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٣٥) .
 ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (٣٦) .

وهكذا نجد القرآن الكريم يعبر عن القوة المدركة في الإنسان - حسب الظاهر - بالعقل أو الفؤاد أو القلب ، فهل يقصد بهذه الألفاظ الثلاثة المضغعة المعروفة بالقلب ، المودعة في صدر الإنسان؟ إن كان ذلك كذلك فكيف نوفق بينه وبين ما ثبت في علم الطب والتشريح ، وبالمشاهدة التي لا تدع مجالاً للشك ، من أن هذه العضلة لا تعقل ولا تفكر ، ولا تصدر الأوامر ، بل هي آلة آلية ، مضغعة ماصة كاسبة ، يدخل فيها الدم ، ويخرج منها بحركة انقباض وانبساط ، بواسطة أوردة وشرايين ، وقد تنتزع هذه العضلة من جسم الإنسان ، ويحل محلها قلب صناعي ، أو قلب كائن حي آخر ، فلا تتغير معلومات ذلك الإنسان ، ولا ذاكرته ، ولا إدراكاته ، ولا تفكيره ، ولا عقله ، ولا تصرفاته؟

جهود المفسرين في حل هذه الإشكالية : يحاول المفسرون أن يجيبوا عن هذا السؤال ، فيقول الألويسي :

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (٣٧) القلب : هو القابل الأول للوحي ، إن أريد به الروح ، ومحل الفهم والحفظ ، إن أريد به العضو ، وقيل : كنى بالقلب عن الجملة الإنسانية ، كما يكنى ببعض الشيء عن كله . أهـ (٣٨) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ قَلوبنا غلف ﴾ ، أي قلوبنا مغطاة بأغشية وأغشية خلقية مانعة من نفوذ ما جئت به فيها ، كقوله : ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ أي مغطاة بعلوم من التوراة ، أراد بقلوبهم أوعية العلم (٣٩) .

(٣٥) سورة المؤمنون ، آية : ٧٨

(٣٦) سورة الأنعام ، آية : ١١٠

(٣٧) سورة البقرة ، آية : ٩٧

(٣٨) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للإمام أبي الفضل الألويسي ، ١/ ٣٢٣ - دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٥ م

(٣٩) المصدر السابق ، ١/ ٣١١

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ بأن غطى عليها ، بما لا يبقى لكم معه عقل وفهم أصلاً^(٤٠) . وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ ، أريد بالقلب : اللطيفة الإنسانية (الروح) ، وبالفقه : الفهم^(٤١) .

وهكذا نجد الألوسي - رحمه الله - يستبعد أن يكون المراد بالقلب تلك العضلة المعروفة في الجانب الأيسر من صدر الإنسان ، ويريد بها الروح تارة ، أي ما به حياة الإنسان ، ومحلّ الفهم ، والحفظ تارة ، أي المخ الذي في رأس الإنسان ، أو هو من إطلاق الجزء وإرادة الكل ، أي الإنسان جملة تارة ، أو أوعية العلم ، أي ما به الفهم والحفظ والعقل تارة .

لكننا نجده عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾^(٤٢) . يقول : كون ذلك مما يقوم بالقلب ، أو غيره ، مما لا يجب عقلاً ، ولا يمتنع ، لكن دل الشرع على قيامه بالقلب ، لقوله تعالى : ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾^(٤٣) ، وقوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾^(٤٤) . وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾^(٤٥) . قال : ولا يخفى أن الاستدلال بما ذكر على محلية القلب للعلم ، لا يخلو عن شيء ، نعم لا ينكر دلالة الآيات على أن للقلب الإنساني - لما أودع فيه - مدخلاً تاماً في الإدراك ، والوجدان يشهد بمدخلية ما أودع في الدماغ في ذلك أيضاً ، ثم يقول : ومن هنا لا أرى للقول : بأن لأحدهما مدخلاً

(٤٠) المصدر السابق ، ٧ / ١٥٢

(٤١) المصدر السابق ، ٩ / ١١٩

(٤٢) سورة الحج ، آية : ٤٦

(٤٣) سورة ق ، آية : ٣٧

(٤٤) سورة الحج ، آية : ٤٦

(٤٥) سورة محمد ، آية : ٢٤

- دون الآخر - وجها ، وكون الإنسان قد يُضرب على رأسه فيذهب عقله ، لا يدل على أن لما أودع في الدماغ لا غير مدخلاً في العلم ، كما لا يخفى على من له قلب سليم ، وذهن مستقيم ، فتأمل . أهـ (٤٦) .

وهكذا نجد الألو سي - هنا - يجعل عضلة القلب التي في صدر الإنسان شريكة للدماغ في كونهما يكونان جهاز الإدراك ، والفهم والتدبر في الإنسان .

أما ماذا يقول الأطباء ، فقد قرأتُ بحثاً مخطوطاً للدكتور حسين رضوان سليمان الليدي المصري ، قدمه إلى رابطة العالم الإسلامي بمكة ، فيقول فيه : «من المعروف أن داخل الجمجمة جسم لين ، يسمى «المخ» ، وفيه بالإضافة إلى مركز الفكر والعاطفة ، مراكز الحس والحركة ، والاتزان ، وغيرهما من مراكز إدارة مملكة الجسد» .

ومخ الإنسان ينقسم - تقريباً - إلى أربعة أزواج من الفصوص : فصان في الأمام أو الجبهة ، وفصان جداريان ، وفصان في الصدغ ، وفصان في الخلف ، وهذه الفصوص تحتوي على مراكز الحس المختلفة : من سمع ، وبصر ، وشم ، ولمس ، وغير ذلك . بالإضافة إلى عشرات المراكز الأخرى ، وهذه المراكز هي الأماكن التي تصب فيها الأعصاب المختلفة التي تحمل إحساس السمع والبصر وغيره ، فتقوم هذه المراكز المخية بترجمة هذه الإشارات ، وتحويلها إلى أحاسيس مرئية ومسموعة ، ويمكن تشبيه أعصاب السمع ومراكز السمع بسلك التليفون ، وسماعة التليفون ، فالسلك ينقل الذبذبات الصوتية ، وهو يمثل عصب السمع الخارج من الأذن ، والسماعة تحول هذه الذبذبات إلى صوت معروف مسموع ، وهي تمثل مراكز السمع في المخ ، وقد وجد العلماء أن الفص الأمامي يحوي إحساس الشم ومتعلقاته ، والفص الجداري يحوي

(٤٦) روح المعاني ، ١٧ / ١٦٩

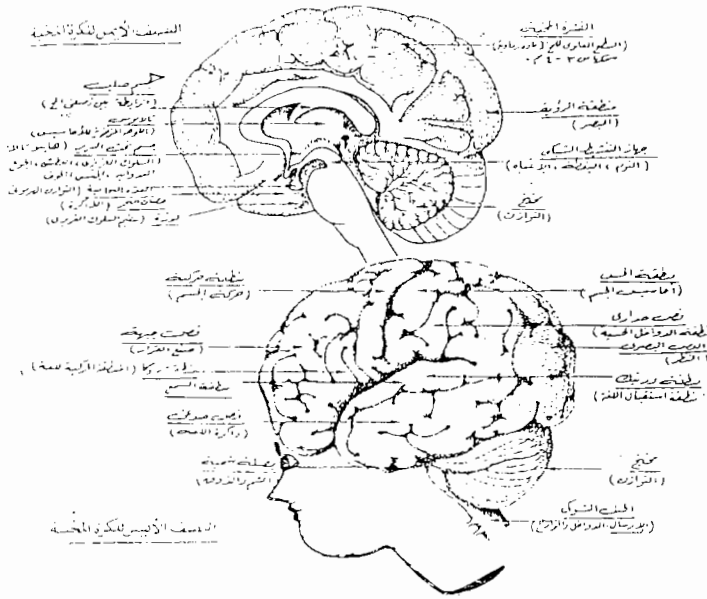
أحاسيس الجسم العامة ، والفص الصدغي يحتوي على أحاسيس السمع ،
والفص الخلفي خاص بإحساس البصر ومتعلقاته .

ويقول في موضع آخر : عملية السمع ببساطة تبدأ بطلبة الأذن ، ومن
خلفها ثلاث عظيمات صغيرة ، رقيقة ، والجهاز في بدايته مبني على فكرة
ميكانيكية ، فوحدة الصوت تهز الطبلية ، فتحرك العظيمات في حركة
ميكانيكية ، لتحرك سائلاً في مجرى ، ليحرك خلايا خاصة ، تطلق تياراً عصبياً
حسياً ، يترجم في مراكز السمع على هيئة صوت .

وأما عملية البصر : فهي تختلف عن ذلك تماماً ، فالصورة الواحدة تنتقل
صوراً عديدة ، بواسطة مستقبلات مختلفة داخل العين ، مرتبطة بدرجة الإضاءة
والإظلام والعمق ، والألوان ، المختلفة ، والزوايا المختلفة ، وقد لاحظ العلماء
وجود خلايا بصرية مختصة بالضوء ، وخلايا بصرية مختصة بالألوان ، وثالثة
بالزوايا ، فالصورة تدخل مجموعة من الصور ، ليعاد تجميعها داخل المركز
البصري ، داخل المخ بدقة .

ثم يفرق بين السمع والبصر عند الإنسان وعند الحيوان ، فيقول : ليست
القيمة في السمع المجرد ، والبصر المجرد ، فهما عاملان مشتركان بين الإنسان
والحيوان ، ولكن القيمة في السمع الواعي العاقل ، والبصر الواعي العاقل .
فالإنسان له سمع وبصر ، والحيوان له سمع وبصر ، ولكن سمع وبصر الحيوان
قاصر - فقط - على سماع الصوت المجرد إذا نعق عليها الراعي ، لا تسمع إلا
جرس النغمة ، ودوي الصوت ، ولكن الإنسان يملك فهماً للصوت ، وفهماً
للبصر ، فهو يسمع ، ويفهم ما يسمع ، ويرى ، ويفهم ما يرى ، بل يفهم ما وراء
السمع والبصر من دلالات ، وقيمة استماع الكلام : فهم المعنى المقصود منه ،
ولذلك لا توصف به البهائم ، وهو لا يتأتى إلا باستعمال العقل السليم .

ثم يتكلم عن منطقة الكلام والبيان في المخ ، وعلاقتها بمنطقة السمع ومنطقة البصر ، ليفسر قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۖ ﴾ (٤٧) . فيقول :



انظر الرسم لترى خلاصة أبحاث كل الدول التي بدأ بها العالم الألماني الشهير «بروكا» ، والعالم الألماني «ورنيك» ، اللذين اكتشفا - لأول مرة - سر مراكز الكلام داخل المخ ، وسميت منطقتا الكلام واللغة باسم كل منهما ، تكريماً لما قدماه .

ترى مركز الكلام أو البيان أو اللغة يقع بين مركز السمع ومركز البصر ، ترى مركز السمع أولاً ، ومركز البصر في مؤخرة المخ ، ومنطقة «ورنيك» للكلام ، بين منطقة السمع ومنطقة البصر ، وهي تتلقى إحساسات السمع

(٤٧) سورة الإسراء ، آية ٣٦

والبصر ، لتحويلها من إشارات مجردة ، إلى معان مفهومة ، ثم تستطيع - عند الحاجة - تحويل هذه المعاني إلى لغة أو معان ترسل إلى مناطق أخرى للبرمجة (منطقة بروكا) ، ثم تنتهي في النهاية إلى مراكز أدوات النطق ، التي تقوم بتحريك أدوات النطق الخارجية ، كاللسان والشفيتين والحنجرة ، لتنطلق الكلمات المعبرة ، كل ذلك في طرفة عين .

أليس من البديهي بعد هذه الجولة أن نؤمن بأن مركز التفكير ، ومقر إدارة مملكة الجسم الإنساني ، إنما هو في المخ ، في الرأس ، وليس في القلب الذي في الصدر؟

فإذا أضفنا إلى ذلك التحقيق العلمي : أن الوفاة الحقيقية للإنسان ، إنما هي بموت خلايا المخ ، وأنهم توصلوا إلى إعادة الحياة والحركة للقلب بعد موت خلايا المخ ، فبقي الجسم ، ولم ترجع الحياة ، فلا حركة لعضو من الأعضاء حيث مات القائد والأمر والحاكم والمدير لهذا الجسم ، وهو المخ .

إن توجيه التعبير عنها بالقلب في القرآن والحديث ، سهل ، فقد رأينا في المعاني اللغوية للعقل : أن من معانيه القلب ، وفي المعاني اللغوية للقلب أن معانيه العقل ، فكل منهما يراد به الآخر ، كما رأينا في تفسير بعض الآيات .

نعم ، الصحابة ومن خواتبوا - أولاً - بالقرآن الكريم فهموا من القلب تلك المضغة التي في الصدر ، ولهم أن يفهموا ذلك على قدر المعلومات المتاحة في عصرهم ، ولا غضاضة في ذلك ، فالقرآن صالح لكل زمان ومكان ، وللاوائل أن يفهموه على قدر مفاهيمهم ، وللأواخر أن يفهموه حسب تقدم علمهم ، وهذا من بلاغة القرآن ، وإعجازه ، وخصائصه ، وكل من الفهمين صحيح ، وإن كان أحدهما على سبيل الحقيقة ، والآخر على سبيل المجاز .

إن عضلة القلب تنشر الدم في جميع أجزاء الجسم ، ومنها المخ الذي تنتشر شعيرات الدم فيه انتشار الماء في العود الأخضر ، وبهذا الدم تحيا مناطقه ، ويؤدي وظائفه ، فإذا سد شريان موصل إلى منطقة من مناطق المخ ماتت تلك المنطقة ، فلا تؤدي وظيفتها .

فالقلب - إذن - سبب حياة المخ ، الذي هو جهاز التفكير ، وسبب السبب في شيء ، سبب في ذلك الشيء ، فإذا أسند التفكير إلى عضلة القلب فقد أسند إلى السبب البعيد ، وإذا أسند إلى المخ فقد أسند إلى السبب القريب ، كما تُسند قطع اللحم تارة إلى الجزار ، وتارة إلى السكين ، والإسناد إلى كل منهما صحيح . والله أعلم .

التفكير ومنزلقاته :

وقد أمر الله تعالى بالتفكير والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى ، فقال تعالى : قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٨﴾ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ، ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ ﴿٥٠﴾ ، كما أثنى الله على المتفكرين فقال : إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٥١﴾ ، فهذه الآية تشير إلى أن المتفكر فيه : المخلوق من السموات والأرض .

(٤٨) سورة الأنعام ، : آية : ٥٠

(٤٩) سورة البقرة ، : آية : ٢١٩

(٥٠) سورة الروم ، : آية : ٨

(٥١) سورة آل عمران ، : آية : ١٩١

ولكن الشيطان لا يفتأ يحارب المؤمن ، يأتيه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، ليحول بينه وبين الجنة ، وله في هذه الحرب وسائله التي تختلف باختلاف عدوه ، فمع ضعف الإيمان يستعمل الإغواء في الشهوات ، والإبعاد عن الطاعات ، والتكاسل عن الواجبات ، ومع قوي الإيمان الذي يئس الشيطان من جره إلى المعاصي ، ومنعه من الطاعات ، فإنه يدخل عليه باسم «التفكير في الخالق وصفاته» ، ثم يقفز به إلى التساؤل : من خلق السماء ، فيجيب المؤمن : الله ، ويسأل : من خلق الأرض ؟ فيجيب المؤمن : الله ، ثم يسأله : الله هو الذي خلقنا ، وخلق كل شيء ، فمن خلق الله؟ (٥٢) .

لذا قال رسول الله ﷺ : «لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال : هذا خلق الله الخلق ، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل : آمنتُ بالله» (٥٣) .

وقد بين النبي - ﷺ - استدراج الشيطان للمؤمن في التفكير ، فقال - عليه الصلاة والسلام : «يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول : من خلق ربك ، فإذا بلغه فليستعذ بالله ، وليتته» (٥٤) .

قال القرطبي : لما كانت هذه الوسوس من إلقاء الشيطان ، ولا قوة لأحد بدفعه إلا بمعونة الله وكفايته ، أمر رسول الله - ﷺ - بالالتجاء إلى الله ، وذلك معنى الاستعاذة ، ثم عقب ذلك بالأمر بالانتهاء عن تلك الوسوس والخواطر ، أي عن الالتفات إليها والإصغاء نحوها ، بل يعرض عنها ، ولا يبالى بها .

وأما قوله في الحديث الآخر : «قل : آمنتُ بالله» ، فهو أمر بتذكر الإيمان الشرعي ، واشتغال القلب ، ولتُحمى تلك الشبهات (٥٥) .

(٥٢) فتح المنعم ، شرح صحيح مسلم ، للدكتور موسى شاهين ، ١٥٧/٢ .
(٥٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ١١٩/١ ، باب ٦٠ ، بيان الوسوسة في الإيمان .
(٥٤) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ، ٩٢/٣ ، باب ١١ ، صفة إبليس .
(٥٥) المفهم شرح صحيح مسلم ، للقرطبي ٣٣٦/١ .

وقال النووي : إذا عرض له هذا الوسواس فليلجأ إلى الله - تعالى - في دفع شره عنه ، وليعرض عن الفكر في ذلك ، وليعلم أن هذا الخاطر من وسوسة الشيطان ، وهو إنما يسعى بالفساد والإغواء ، فليعرض عن الإصغاء إلى وسوسته ، وليبادر إلى قطعها بالاشتغال بغيرها (٥٦) .

فالنبي - عليه الصلاة والسلام - يحدد هذه الأدوية للقلوب السليمة ، الصحيحة المستقيمة ، التي تعرض لها الشبهات ، ولا تمكث فيها ، فإذا استعملت هذه الأدوية على نحو ما أمر به ، بقيت القلوب على صحتها (٥٧) .

ثم إن السؤال : من خلق الله ؟ لا ينشأ إلا عن جهل مفرط ، فإن الموسوس إن قال : ما المانع أن يخلق الخالق نفسه ؟ قيل له : هذا ينقض بعضه بعضا ، لأنك أثبت خالقاً ، وأوجبت وجوده ، ثم قلت : يخلق نفسه ، فأوجبت عدمه ، وهذا متناقض ، لأن الفاعل يتقدم وجوده على وجود فعله ، فيستحيل كون نفسه فعلاً له (٥٨) .

وإنما أمر النبي - ﷺ - بالإمساك عن التفكير والاستعاذة ، دون الحجة الواضحة الموصلة لرفع الشبهة ، لأن الشيطان إذا وسوس فليس لوسوسته انتهاء ، بل كلما ألزم حجة زاغ إلى غيرها ، إلى أن يفضي بالمرء إلى الحيرة (٥٩) .

فمهما عورض بحجة يجد مسلكاً آخر من المغالطة والاسترسال ، فيضيع الوقت إن سلم من فتنته ، فلاتدبر في دفعه أقوى من الالتجاء إلى الله - تعالى - بالاستعاذة به (٦٠) ، كما قل تعالى ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ (٦١) .

(٥٦) شرح النووي على صحيح مسلم ٢٠ : ١٥٥-١٥٦

(٥٧) المفهم شرح صحيح مسلم ١٠ : ٣٣٦

(٥٨) فتح الباري ٢٩٠ : ٣٣-٣٤ ، في كتاب الاعتصام ، باب ما يكره من كثرة السؤال

(٥٩) فتح الباري ١٣٠ : ٦٧

(٦٠) فتح الباري ٢٩٠ : ٣٤

(٦١) سورة الأعراف ، آية ٢٠٠

أما المؤمن السائل الذي يقع منه الكلام بالسؤال والجواب ، فلا بد من مشافهته بالدليل العقلي ، والبرهان القطعي ، كما فعل النبي - ﷺ - مع الذي خالطته شبهة الإبل الجرب حين قال النبي - ﷺ - : «لا عدوى» ، فقال أعرابي : فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء ، فيخالطها البعير الأجرب فيُجربها؟ فقال الرسول ﷺ : «فمن أعدى الأول؟» (٦٢) .

فاستأصل الشبهة من أصلها ، فأجابه بالبرهان العقلي ، أنه إذا كان البعير الذي دخل فيها أجربها ، فمن أجربه هو؟ فإن كان أجربه بعير آخر كان الكلام فيه كالكلام في الأول ، فلا بد أن نقف عند بعير أجربه الله من غير عدوى ، وإذا كان كذلك فالله - تعالى - هو الذي أجربها كلها ، أي خلق الجرب فيها (٦٣) .

فالنبي - ﷺ - لا يمنع أن يفكر المسلم ، ولكن يحدد له نوعية هذا التفكير ، فيقول : «لا تفكروا في الله ، وتفكروا في خلق الله» (٦٤) .

يقول الغزالي : التفكير في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه منع منه ، لأن العقول تتحير فيه ، فالصواب - إذن - أن لا يتعرض لمجاري الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته ، فإن أكثر العقول لا تحتمله ، بل القدر اليسير منه ، الذي صرح به بعض العلماء ، وهو أن الله - تعالى - مقدس عن المكان ، ومُنزّه عن الأقطار والجهات ، وأنه ليس داخل العالم ، ولا خارجه ، ولا هو متصل بالعالم ، ولا هو منفصل عنه ، هذا القدر حير عقول أقوام ، حتى أنكروه ، حيث لم يطبقوا معرفته ، بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا ، حين قيل لهم : يتعاضم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ، ويد ، وعين ، وعضو ، وأن يكون جسماً

(٦٢) أخرجه البخاري في الطب ٣١ / ٧ ، باب ٥٤ ، لا عدوى

(٦٣) المفهم شرح صحيح مسلم . ٣٣٧ / ١

(٦٤) حلية الأولياء لأبي نعيم ، ٦٦ - ٦٧ ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣٩٦ / ٤

مشخصاً ، له مقدار وحجم^(٦٥) ، ولذلك قال علي - رضي الله عنه - : «حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذبَ الله ورسوله !»^(٦٦) .

قال الفخر الرازي : أشار بهذا الحديث إلى أن من أراد الوصول إلى كنه العظمة وهوية الجلال تحير ، وتردد ، بل عمي ، فإن نور جلال الإلهية يعمي أحداق العقول البشرية وترك النظر بالكلية في المعرفة يوقع في الضلال والطرفان مذمومان ، والطريق القويم أن يخوض الإنسان البحر المعتدل ، ويترك التعمق . وقال الزبيدي : قال الشيخ الأكبر : لا تفكروا في الله ، لأن للعقول حداً تقف عنده ، من حيث هي مفكرة^(٦٧) .

فالتفكير في الخالق وصفاته وكماله يقفز بالمسلم إلى التساؤل عن الذي خلق الله ، وهذا الاسترسال في الفكر لا يزيد المرء إلا حيرة ، وقد جاء ناسٌ من أصحاب النبي - ﷺ - فسألوه : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ، قال : وقد وجدتموه؟ قالوا : نعم ، قال : (ذلك صريح الإيمان)^(٦٨) .

قال المازري : قوله - ﷺ - : (ذلك صريح الإيمان) لا يراد به أن الوسوسة هي الإيمان . لأن الإيمان هو اليقين ، وإما الإشارة إلى ما وجدوا من الخوف من الله - تعالى - أن يُعاقبوا على ما وقع في أنفسهم ، فكأنه يقول : جزعكم من هذا هو محض الإيمان ، إذ الخوف من الله تعالى ينافي الشك فيه^(٦٩) .

وقال ابن حجر : أراد رسول الله ﷺ أن يقول : «ذاك صريح الإيمان» أي علمكم بقبيح تلك الوسوس ، ووجود النفرة عنها ، دليل على خلوص إيمانكم ، فإن الكافر يُصرّ على ما في قلبه ، ولا ينفر عنه^(٧٠) .

(٦٥) إتحاف السادة المتقين ١٠ / ١٨٠ - ١٨١ بتصرف

(٦٦) أخرجه البخاري موقوفاً في كتاب العلم ١ / ٤١ باب ٤٩ ، من خص بالعلم قوماً دون قوم

(٦٧) إتحاف السادة المتقين ١ / ١٨٢ - ١٨٣

(٦٨) أخرجه مسلم في الإيمان ١ / ١١٩ ، باب ٦٠ ، بيان الوسوسة في الإيمان

(٦٩) المعلم بفوائد مسلم للمازري ١٠ / ٢١٠

(٧٠) فتح الباري ٢٨ / ٣٤

وقد تجاوز الله لهذه الأمة عن الوسوسة ، وعما حدثت بها نفسها من السوء ، فقال : - ﷺ - : «إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدثت به أنفسها ، ما لم تعمل به ، أو تكلم» (٧١) .

فما يقع في النفس ينقسم إلى أربع مراتب :
الأول : الوسوسة : وهي أن يخطر له خاطر ، ثم يذهب هذا الخاطر في الحال ، وهذا معفو عنه ، وهو دون التردد .

الثاني : التردد : وهو فوق الخاطر ، يخطر الشيء ، فيهم به ، ثم ينفر عنه ، ثم يهم به ، ثم ينفر عنه ، ولا يستمر على قصده ، فيُغفَى عنه أيضاً .
الثالث : الهم : وهو الميل إلى الشيء ، وعدم النفور عنه ، لكنه لا يصمم على فعله ، فيُغفَى عنه أيضاً .

الرابع : العزم : وهو الميل إلى الشيء ، وعدم النفور منه ، والتصميم على فعله (٧٢) .

فأفعال القلوب إذا استقرت يؤاخذ بها الإنسان ، ولذا يرى المازري أن الخواطر على قسمين :

١ - خواطر ليست مستقرة ، ولم تجلبها شبهة طرأت ، فهي تُدفع بالإعراض عنها ، وعلى مثلها ينطلق اسم الوسوسة .

٢ - خواطر مستقرة ، أوجبته شبهة ، فإنها لا تُدفع إلا باستدلال ونظر في إبطالها ، مثل حديث (لا عدوى) (٧٣) .

ومما يؤكد أن الإنسان لا يؤاخذ بالخواطر التي لا تستقر في النفس مثل الهم ، وحديث النفس : ما قاله - ﷺ - فيما يروي عن ربه عز وجل فيقول : «إن

(٧١) أخرجه البخاري في الإيمان والنذور ، ٢٢٥ / ٧ ، باب ١٤ ، (لا يؤاخذكم الله باللغو ، في أيمانكم)

(٧٢) فتح الباري في كتاب الرقاق ، ١٢٠ / ٣٤

(٧٣) المعلم بقوائد مسلم ٢١٠ / ١

اللَّهِ كتب الحسنات والسيئات ، ثم بيّن ذلك ، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة . فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همّ فعملها كتبها الله له سيئة واحدة» (٧٤) .

فهذا من فضل الله على عباده ، حيث عفا عنهم ، ولولا هذا الفضل العظيم لم يدخل أحد الجنة ، لأن السيئات من العباد أكثر من الحسنات ، فلطف الله عز وجل بعباده أن ضاعف لهم الحسنات دون السيئات ، فإذا همّ بالسيئة ولم يعمل بها كُتبت له حسنة ، لأن الكف عن الشر حسنة (٧٥) .

لذا قيل : لو طالعت قلوب المتقين بفكرها ، إلى ما أقدر في حجب الغيب من خيرة الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ، ولم تقر لهم فيها عين (٧٦) .

فالتفكير قد يهدي صاحبه إلى سواء السبيل ، كما حدث مع الشيخ الإسلام الفضيل بن عياض ، فقد كان الفضيل شاطراً يقطع الطريق ، وكان سبب توبته أنه عشق جارية ، فبينما هو يرتقي الجدران إليها ، إذ سمع تالياً يتلو ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٧٧) ، فلما سمعها قال : بلى يارب ، قد آن ، فرجع ، فأواه الليل إلى خربة ، فإذا فيها سابلة (٧٨) ، فقال بعضهم : نرحل ، وقال بعضهم : حتى نصبح ، فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا ، قال الفضيل : ففكرت ، وقلت : أنا أسعى بالليل في المعاصي ، وقوم من المسلمين هاهنا يخافوني ، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع ، اللهم ، إني قد تبت إليك ، وجعلتُ توبتي مجاورة البيت الحرام (٧٩) .

(٧٤) أخرجه البخاري في الرقاق ، ١٨٧/٧ ، باب من همّ بحسنة .

(٧٥) عمدة القاري ٨٠/٢٣ .

(٧٦) مفتاح دار السعادة ، لابن قيم الجوزية ، ص ١٩٧ ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٩م

(٧٧) سورة الحديد : آية ١٦ .

(٧٨) السابلة : أبناء السبيل المتخلفون على الطرقات في حوائجهم ، لسان العرب ٦/١٦٣

(٧٩) سير أعلام النبلاء ، للذهبي ٤٢٣/٨

وكذلك هذا الحديث الذي يرويه ابن مسعود عن رسول الله ﷺ فيقول :
«إن بني إسرائيل استخلفوا عليهم خليفة ، فقام يصلي - في القمر - فوق بيت المقدس ، فذكر أموراً صنعها ، فتدلى بسبب (٨٠) ، فأصبح السبب متعلقاً بالمسجد ، وقد ذهب ، فانطلق حتى أتى قوماً على شط البحر فوجدهم يصنعون لبناً (٨١) ، فسألهم كيف تأخذون على هذا اللبن ؟ فأخبروه فلبن معهم ، فكان يأكل من عمل يده ، حتى إذا حضرت الصلاة تطهر فصلى ، فرفع ذلك العامل إلى دهقانهم (٨٢) ، فقال : فينا رجل يصنع كذا وكذا ، فأرسل إليه ، فأبى أن يأتيه ، ثم إنه جاء يسير على دابته ، فلما رآه فرتبته فسبقه ، فقال : أنظرني أكلمك كلمة ، فقام حتى كلمه ، فأخبره أنه كان ملكاً ، وأنه فر من رهبة ذنبه ، فقال : إني لاحق بذلك معك ، فعبد الله ، فسألا الله أن يميتهما جميعاً فماتا» قال عبد الله : فلو كنت برميلة مصر لأريتكم قبورهما بصفة رسول الله ﷺ (٨٣) .

قال ابن العربي : اختلف الناس أي العاملين أفضل : التفكر ، أم الصلاة ؟ ذهب الصوفية إلى أن التفكر أفضل ، فإنه يثمر المعرفة ، وهو أفضل المقامات الشرعية .

وذهب الفقهاء إلى أن الصلاة أفضل ، لما ورد في الأحاديث من الحث عليها ، والدعاء إليها ، والترغيب فيها ، فالنبي - ﷺ - كان يجمع بين التفكر في المخلوقات ، ثم إقباله على صلاته بعده ، وهذه السنة هي التي يُعتمد عليها (٨٤) ، فقد ورد عن عطاء أنه قال : دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة ، فقالت لعبيد بن عمير : قد آن لك أن تزور . فقال : يا أمه ، كما قال الأول : زرعاً

(٨٠) سبب : أي جبل ، وقيل : لا يسمى الجبل سبباً حتى يكون أحد طرفيه معلقاً بالسقف ، أو نحوه ، النهاية ٣٢٩ / ٢

(٨١) اللبن : المضروب من الطين ، يُبنى به دون أن يُطبخ ، المعجم الوسيط ٨١٤ / ٢

(٨٢) الدهقان : بكسر الدال وضمها : رئيس القرية . النهاية ١٤٥ / ٢

(٨٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢١٧ / ١٠ وقال الهيثمي في المجمع ٢١٩ - ٢١٨ / ١٠ : رواه الطبراني في الكبير ، وإسناده حسن

(٨٤) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، سورة آل عمران ، آية ١٩١ ، ٤ / ٢٠٠

تزدرد حباً ، قال ، فقالت : دعونا من بطالتكم هذه ، قال ابن عمير : أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله - ﷺ - ، قال : فسكتت ، ثم قالت : لما كانت ليلة من الليالي قال : يا عائشة : ذريني أتعبد الليلة لربي ، قلت : والله إنني لأحب قربك ، وأحب مايسرك ، قالت : فقام فتطهر ، ثم قام يصلي ، قالت : فلم يزل يبكي حتى بلّ حجره ، قالت : وكان جالسا ، فلم يزل يبكي - ﷺ - حت بلّ لحيته ، قالت : ثم بكى ، حتى بلّ الأرض ، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة ، فلما رآه يبكي قال : يا رسول الله ، تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال : (أفلا أكون عبداً شكوراً؟) لقد نزلت عليّ الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ...﴾ الآية كلها (٨٥) .

فهذه الآية تدفع العاقل على التفكير فيها ، والجدّ في الطاعة .

أما طريقة الصوفية أن يكون الشيخ منهم يوماً وليلة وشهراً مفكراً لا يفتر ، فطريقة بعيدة عن الصواب ، غير لائقة بالبشر ، ولا مستمرة على السنن (٨٦) .

فقد يدفع التفكير بالمسلم إلى أن يخالف الحق ، وهل هلك أهل الأهواء وخالفوا الحق إلا بسبب التفكير في دينهم ، فهم كل يوم على دين ضلال ، وشبهة جديدة ، لا يقيمون على دين - وإن أعجبهم - إلا نقلهم التفكير إلى دين سواه ، ولو لزموا السنن وأمر المسلمين ، وتركوا الجدل لقطعوا عنهم الشك ، ولذا قال عبدالرحمن بن أبي الزناد عن أبيه : إن السنن لا تخاصم ، ولا ينبغي لها أن تُتبع بالرأي والتفكير ، ولو فعل الناس ذلك لم يمض يوم إلا انتقلوا من دين إلى دين ، ولكنه ينبغي للسنن أن تُلزم ، ويُتمسك بها على ما وافق الرأي

(٨٥) موارد الظمان لابن حبان ، كتاب المواقيت ، باب البكاء في الصلاة ، ص ١٣٩-١٤٠ ، والحديث صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٦٨) ٩٤ / ١

(٨٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، سورة آل عمران ، آية ١٩١ ، ٤ / ٢٠٠

وخالفه^(٨٧) . ويحق للمسلم أن يعلم أن التفكير يوجب الإسلام ، وأن الإسلام يوجب التفكير^(٨٨) .

وقد استخدم رسول الله ﷺ والمسلمون أنماطاً من التفكير مثل :

١ - التفكير الابتكاري : حيث يقوم المبتكر بابتكار ألوان من الإشباع حين يوافق الآخرون على آرائه ، أو حين يعلم أن ما يبتكره له فوائده الاجتماعية^(٨٩) أحياناً ، مثلما حدث أن النبي ﷺ مر بقوم على رؤوس النخل فقال : ما يصنع هؤلاء؟ فقالوا : يلحقونه ، يجعلون الذكر في الأنثى ، فيلقح ، فقال رسول الله - ﷺ - : ما أظن يغني ذلك شيئاً ، قال : فأخبروا بذلك فتركوه ، وفي رواية فخرج شيصاً^(٩٠) - فأخبر رسول الله - ﷺ - بذلك ، فقال : إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإنني إنما ظننت ظناً ، فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به ، فإنني لن أكذب على الله - عز وجل -^(٩١) .

وقد يكون الابتكار في أمر غير مرغوب ، كما حدث أن أهديت لرسول الله - ﷺ - بغلة فركبها ، فقال علي : لو حملنا الحمير على الخيل فكانت لنا مثل هذه ، قال رسول الله - ﷺ - : إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون^(٩٢) . فعلي رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ في أن تحمل الحمير على الخيل لتنتج البغال ، فكره النبي ﷺ ذلك ، لأن منتجي ما لا ثواب في إنتاجه ، ولا سهم في الغنيمة مع الغزو عليها ، وتاركي إنتاج ما في إنتاجه ثواب ، والسهمان في الغنيمة ، أولئك الذين لا يعلمون^(٩٣) .

(٨) كتاب الفقيه والمتفقه ١٥٢/١ ، ١٥٣ .

(٩) التفكير فريضة إسلامية ص ٢٠٤

(١٠) التفكير دراسات نفسية ، د . فؤاد أبو حطب ، ود . سيد أحمد ، ص ٨٩ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، طبعة سنة ١٩٧٢ م .

(١١) الشيص : تمر لم يتم نضجه لسوء تأبيره ، المعجم الوسيط ، ١/ ٥٠٣ .

(١٢) أخرجه مسلم في الفضائل ، ٢/ ١٨٣٥ ، ١٨٣٦ ، باب ٣٨ ، وجوب امتثال ما قاله شرعاً .

(١٣) أخرجه أبوداود في كتاب الجهاد ، ٣/ ٥٨-٥٩ ، في كراهية الحمير تنزى على الخيل ، وقال الألباني في مشكاة

مصابيح : ١١٤٠/٢ : إسناده صحيح

شكل الآثار للطحاوي ، ١/ ٨٦

٢ - التفكير الناقد^(٩٤) ، حيث يتميز هذا التفكير بالقدرة على التمييز بين الحجة الجيدة ، وغير الجيدة ، كما في الحديث الذي رواه أبوهريرة عن النبي ﷺ قال : احتج آدم وموسى ، فقال له موسى : يا آدم ، أنت أبونا ، خيبتنا ، وأخرجتنا من الجنة ، قال له آدم : يا موسى ، اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك بيده ، أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ، فحجّ آدم موسى ثلاثاً^(٩٥) . وفي رواية أخرى : احتج آدم وموسى - عليهما السلام - عند ربهما ، فحجّ آدم موسى . قال موسى : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك في جنته ، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض ؟ فقال آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء ، وقربك نجياً ، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق ؟ قال موسى : بأربعين عاماً ، قال آدم : فهل وجدت فيها ، وعصى آدم ربه فغوى ، قال : نعم ، قال : أفتلومني على أن عملت عملاً كتبه الله عليّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ قال رسول الله ﷺ : فحجّ آدم موسى^(٩٦) .

فالملاحظ أن آدم - عليه السلام - حج موسى - عليه السلام - ، وهذا ما ذكره - ﷺ - في هذا الحديث ، حيث أراد آدم - عليه السلام - من هذه المحااجة أن يتوصل موسى - عليه السلام - لتحقيق الأمر ، بتفكيره ، من أن أمر خروج آدم - عليه السلام - من الجنة ، أمر كتبه الله عليه قبل أن يُخلق بأربعين عاماً .

٣ - التفكير الاستدلالي : هذا النوع من التفكير يتطلب استخدام أكبر قدر من المعلومات بهدف الوصول إلى حلول تقاربية^(٩٧) ، وقد استخدمها النبي -

(٩٤) التفكير دراسات نفسية ص ٩٥

(٩٥) أخرجه البخاري في القدر ، ٢١٤ / ٧ ، باب ١١ ، تحاج آدم وموسى عند الله عز وجل

(٩٦) أخرجه مسلم في القدر ، ٢٠٤٣ / ٣ ، باب ٢ ، حجج آدم وموسى

(٩٧) التفكير دراسات نفسية ، ص ٧٧

ﷺ - في أحاديثه ، كهذا الحديث الذي يرويه علي* - رضي الله عنه -
 فيقول : لما قدمنا المدينة أصبنا من ثمارها فاجتويناها ، وأصابنا بها وعك ،
 وكان النبي - ﷺ - يتخبر عن بدر ، فلما بلغنا أن المشركين قد أقبلوا سار
 رسول الله - إلى بدر - وبدر بئر - ، فسبقنا المشركون إليها ، فوجدنا فيها
 رجلين منهم ، رجلاً من قريش ، ومولى لعقبة بن أبي معيط ، فأما القرشي
 فانفلت ، وأما مولى عقبة فأخذناه ، فجعلنا نقول له : كم القوم؟ فيقول : هم
 والله كثير عددهم ، شديد بأسهم ، فجعل المسلمون إذ قال ذلك ضربه ،
 حتى انتهوا به إلى النبي - ﷺ - فقال له : كم القوم؟ قال : هم والله كثير
 عددهم شديد بأسهم ، فجهد النبي ﷺ أن يخبره كم هم فأبى ، ثم إن النبي
 ﷺ سأله : كم ينحرون من الجزور؟ فقال : عشرأ كل يوم ، فقال رسول
 الله ﷺ : القوم ألف ، كل جزور لمائة وتبعها^(٩٨) . فاستطاع النبي - ﷺ -
 بحسن تفكيره وذكائه أن يصل إلى معرفة عدد القوم .

٤ - التفكير الجماعي : كثير من المسائل والمشكلات الاجتماعية تتطلب
 تفكيراً في جماعة ، فهذا التفكير يفيد في فهم ما يجري في الجماعة وهي
 تفكر^(٩٩) ، مثل واقعة أسرى بدر ، حيث عرض رسول الله - ﷺ - أمر
 الأسرى على أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - فقال : ما ترون في هؤلاء
 الأسارى؟ فقال أبو بكر : يا نبي الله ، هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ
 منهم فدية ، فتكون لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن يهديهم للإسلام ، فقال
 رسول الله ﷺ : ماترى يا ابن الخطاب؟ قلت : لا . والله يارسول الله ، ما أرى

(٩٨) مسند الإمام أحمد ، ١/ ١١٧ قال الهيثمي في المجمع ٦/ ٧٥ : رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح ، غير حارثة بن مضرب ،
 وهو ثقة

(٩٩) التفكير دراسات نفسية ، ص ١٧٥

الذي رأى أبوبكر ، ولكنني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم ، فتمكن علياً من عقيل ، فيضرب عنقه وتمكنني من فلان (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها ، فهوي رسول الله - ﷺ - ما قال أبوبكر ، ولم يهو ما قلت ، فلما كان من الغد جئت ، فإذا رسول الله - ﷺ - وأبوبكر قاعدين يبكيان ، قلت : يا رسول الله ، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاءً بكيت ، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما ، فقال رسول الله ﷺ : أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة قريبة من نبي الله - ﷺ -) وأنزل الله عز وجل : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ ، إلى قوله : ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ﴾ (١٠٠) .

ومثال آخر ما حدث يوم فتح مكة ، عندما اجتمع رسول الله - ﷺ - بأهل قريش وسألهم : ماترون أني صانع بكم؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء (١٠١) . وذلك لأن الفرد بطبيعته يحتاج إلى أن يفهم ما يجري في الجماعة وهي تفكر ، كما حصل مع رسول الله - ﷺ - في هذا الحديث الذي يرويه أنس بن مالك فيقول : لما فتحت مكة قسم الغنائم في قريش ، فقالت الأنصار : إن هذا لهو العجب ، إن سيفونا تقطر من دمائهم ، وإن غنائمنا ترد عليهم ! فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فجمعهم ، فقال : ما الذي بلغني عنكم؟ فقالوا : هو الذي بلغك ، وكانوا لا يكذبون ، قال : أما ترضون أن يرجع الناس بالدينيا إلى بيوتهم ، وترجعون برسول الله إلى بيوتكم؟ لو سلك

(١٠٠) أخرجه مسلم في الجهاد والسير ٢ / ١٣٨٥ ، باب ١٨ ، الإمداد بالملائكة في غزوة بدر

(١٠١) السنن الكبرى ، للبيهقي ، ١١٨ / ٩

الناس وادياً أو شعباً ، وسلكت الأنصار وادياً أو شعباً - لسلكت وادي الأنصار أو شعب الأنصار (١٠٢) .

فهذا التفكير الجماعي بين الرسول - ﷺ - وبين أصحابه يساعد على التواصل الفكري والاجتماعي بينهم .

٥ - المستوى التصوري : وهو مستوى من التفكير ، يعتمد على استخدام الصور الحسية المختلفة (١٠٣) ، حيث يستطيع المتحدث من خلال حديثه - وأحياناً من خلال تساؤلاته - أن يصل لمراده ، كما في هذا الحديث الذي يسأل النبي - ﷺ - أصحابه فيه ، فيقول : «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم ، فحدثوني ماهي ؟ فوقع الناس في شجر البوادي ، قال عبدالله ابن عمر روي الحديث - وكان غلاماً - : ووقع في نفسي أنها النخلة ، فاستحييت ، ثم قالوا : حدثنا ماهي يا رسول الله ؟ قال : فقال : «هي النخلة» (١٠٤) ، فهذا الأسلوب في التفكير يتعلم منه المسلم الأفكار التي تقرّب من خالقه ، والتي ينفع بها نفسه ، ومجتمعه والناس أجمعين .

كما أن هناك أساليب تساعد على تحسين التفكير ، وقد استخدمها معلم البشرية الأول الرسول - ﷺ - ، حتي يساعد الشخص ، كي يصل إلى قراره الذي تنعكس آثاره عليه في حياته .

ومن هذه الأساليب المستخدمة لتحسين التفكير عند الفرد :

١ - تحسين الظروف المادية والفسولوجية والانفعالية للفرد (١٠٥) ، مثلما

(١٠٢) أخرجه مسلم في الزكاة ١ / ٧٣٥ . باب ٤٦ ، إعطاء المؤلفة قلوبهم ، وأخرجه البخاري في مناقب الأنصار ٤ / ٢٢١ - ٢٢٢ ، باب ١ مناقب الأنصار

(١٠٣) الإسلام وقضايا علم النفس الحديث . ص ١٦٠

(١٠٤) أخرجه مسلم في صفات المنافقين ٣ / ٢١٦٥ ، باب ١٥ ، مثل المؤمن مثل النخلة ، وأخرجه البخاري في كتاب الأطعمة ، ٦ / ٢١١ باب ٤٢ أكل الجُمَار

(١٠٥) التفكير دراسات نفسية . ص ٢٠٩

طلب النبي - ﷺ - من ماعز أن يراجع نفسه عندما أقرّ على نفسه بالزنا ، فقد جاء ماعز إلى النبي - ﷺ - فقال : يا رسول الله ، طهرني ، فقال : ويحك ، ارجع فاستغفر الله ، وتب إليه ، قال : فرجع غير بعيد ، ثم جاء فقال : يا رسول الله ، طهرني ، فقال رسول الله - ﷺ - ويحك ، ارجع فاستغفر الله ، وتب إليه ، قال : فرجع غير بعيد ، ثم جاء ، فقال : يا رسول الله ، طهرني ، فقال النبي - ﷺ - مثل ذلك (١٠٦) . (الخ . الحديث) .

فردّه - ﷺ - لماعز دعوة إلى التفكير والتريث ، والتبصر في عواقب الأمور ، وعدم الأخذ بسرعة القرار ، وبالاقرار بما قد لا تحمد عقباه ، ولهذا سأله في رواية أخرى «أبك جنون؟» ففائدة هذا السؤال - كما يرى القاضي عياض - : هو ستر حاله ، واستبعاد أن يلح عاقل بالاقرار بما يقتضي إهلاكه ، ولعله يرجع عن قوله (١٠٧) .

وكم وضّح - ﷺ - لأصحابه عفو الله ومغفرته ، وكم دعا - ﷺ - من ستره الله بالليل إلى ألا يفضح نفسه في النهار ، كما قال - ﷺ - : «كل أمتي معافي إلا المجاهرين ، وإن من المجانة» (١٠٨) أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يُصبح - وقد ستره الله - فيقول : يا فلان ، عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه» (١٠٩) .

فالرسول - ﷺ - ردّ ماعزاً إلى القواعد الشرعية التي غرسها في أصحابه ، ليقارن بين الاعتراف ، وبين اللجوء إلى عفو الله ، ردّه - ﷺ - ليفكر في الأمر ، فيأخذ بخير النظرين .

(١٠٦) أخرجه مسلم في الحدود ٢ / ١٣٢٢ ، باب ٥ ، من اعترف على نفسه بالزنى

(١٠٧) فتح الباري ٢٥ / ٢٦٧

(١٠٨) المجانة : من المجنون ، ومنه : الماجن ، وهو الذي يستهتر في أموره ، فلا يبالي بما قال ، وما قيل له . فتح الباري ، ٢٢ / ٢٨١

(١٠٩) أخرجه البخاري في الأدب ، ٧ / ٨٩ ، باب ٦٠ ، ستر المؤمن على نفسه

دعاه -ﷺ- إلى أن يستبصر ، ويتعمق في تحليل ودراسة موقفه ، لعلاج خطأ وقع منه ، وهل الأفضل له أن يستغفر ويتوب ويطلب من الله العفو والسماح؟ أو أن يقام عليه الحد فيُرجم؟ .

دعاه إلى أن يفكر بين أن يعيش زمناً يطيع الله فيه ويعبده ، ويرفع رصيده من الحسنات في مستقبل أيامه ، وبين أن يقطع حياته من أجل خطأ غلبه عليه الشيطان .

مشكلة الاختيار في هذا المقام أدق وأعمق بمشكلة يقع فيها إنسان عاقل ، وهي أدق من التفكير في خلق السماوات والأرض ، وأعمق من التفكير في خلق الإنسان ، وأكثر فائدة من كل تفكير دنيوي أو أخروي .

إنه التفكير بين حياة أو موت .

إنه التفكير بين طهارة وعدم طهارة .

إنه التفكير بين النفس اللوامة ، والنفس الأمارة بالسوء .

إنه التفكير بين أن يحيا قاصداً عمل الخيرات ، والإكثار من الصالحات ، والإنابة إلى الله ، وبين أن يضحي بهذه الحياة ، مقاماً عليه الحد ، مؤملاً في عفو الله ، وهذا ما أكدّه ابن حجر ، فقال : في الحديث منقبة عظيمة لماعز بن مالك ، لأنه استمر على طلب إقامة الحد عليه مع توبته ، ليتم تطهيره ، ولم يرجع عن إقراره ، مع أن الطبع البشري يقتضي أنه لا يستمر على الإقرار بما يقتضي إزهاق نفسه ، فجاهد نفسه على ذلك وقوي عليها (١١٠) .

اختيار صعب دفعه إليه رسول الله -ﷺ- ، لكن ماعزاً اختار بعد تردد ومراجعات ، اختار إنهاء حياته تطهيراً لأنامه ، ورضي عنه رسول الله -ﷺ- .

(١١٠) فتح الباري ، ٢٥ / ٢٦٨

فقال : «لقد تاب توبةً لو قسمت بين أمة لو سعتهم» (١١١) ، وفي رواية أخرى قال ﷺ : «والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ، يتغمس فيها» (١١٢) .

٢ - تحسين ظروف العمل ، من ناحية التهوية والهدوء يؤدي إلى تحسين التفكير (١١٣) : مثلما حدث من تراحم المسلمين على مجلس رسول الله - ﷺ - ، فأمر الله سبحانه وتعالى بالتفسيح في المجالس ، ليعم الخير والانتفاع بالعلم ، فقال تعالى : ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فَاْفْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (١١٤) وحشهم رسول الله - ﷺ - على ذلك ، فقال : «تفسحوا ، وتوسعوا» (١١٥) ، كذلك كان - ﷺ - يحرص على أن يحدثهم وهم في حالة سكون وهدوء ، وكان الصحابة - رضي الله عنهم - يحرصون على ذلك ، كما قال أسامة بن شريك : «أتيت النبي - ﷺ - وأصحابه عنده كأنَّ على رؤوسهم الطير» (١١٦) .

٣ - تنظيم الوقت يساعد على تحسين التفكير (١١٧) : فقد كان النبي ﷺ يراعي الأوقات المناسبة في تذكيرهم ، خشية أن يملوا (١١٨) ، كما قال ابن مسعود - رضي الله عنه - : «كان النبي - ﷺ - يتخوَّننا بالموعظة في الأيام ، كراهة السَّامة علينا» (١١٩) ، فكان النبي ﷺ يطلب أحوالهم التي ينشطون فيها للموعظة ، فيعظهم فيها ، ولا يكثر عليهم ، فيملُّوا ، وقد تأسَّى بذلك الصحابة - رضي الله عنهم - ، فها هو عبدالله بن مسعود يقول : حَدَّثَ

(١١١) أخرجه مسلم في الحدود ، ١٣٢٢ / ٢ ، باب ٥ ، من أسرف على نفسه بالزنى

(١١٢) أخرجه أبو داود في الحدود ، ٨٥١ / ٤ و ٥٨٥ ، باب ٢٤ ، رجم ماعز بن مالك

(١١٣) التفكير دراسات نفسية ، ص ٢٠٩

(١١٤) سورة المجادلة ، آية : ١١

(١١٥) أخرجه البخاري في الاستئذان ، ١٣٨ / ٧ ، باب ١٢٢ إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس

(١١٦) مسند الإمام أحمد ، ٢٧٨ / ٤ ، وسنن أبي داود في الطب ، ١٩٢ / ٤ ، باب ١ ، في الرجل يتداوى . قال الألباني : إسناده صحيح ، مشكاة المصابيح ، رقم (٤٥٣٢) ٢ / ٢٨١

(١١٧) التفكير دراسات نفسية ص ٢١٠

(١١٨) فتح الباري في كتاب العلم ١ / ٢٥٦ - ٢٧٥ ، باب كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة

(١١٩) أخرجه البخاري في العلم ١ / ٢٥ ، باب ١ كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة

القوم ما حدجوك بأبصارهم ، وأقبلت عليك قلوبهم ، فإذا انصرفت عنك قلوبهم فلا تحدثهم ، قيل : وما علامة ذلك ؟ قال : إذا التفت بعضهم إلى بعض ، ورأيتهم يتشاءبون فلا تحدثهم (١٢٠) .

٤ - ومما يساعد على تحسين الفكر - أيضاً : دراسة الأخطاء الشائعة التي قام بها السابقون (١٢١) ، فقد كان النبي - ﷺ - يحدث أصحابه عن أحوال السابقين ، ليأخذوا العبرة منها ، كما حدثهم وهو في المسجد ، فقال : «إن رجلاً ممن كان قبلكم ، خرجت به قرحة ، فلما آذته انتزع سهماً من كنانته فنكأها» (١٢٢) ، فلما يرقأ الدم (١٢٣) حتى مات ، قال ربكم : «قد حرمتُ عليه الجنة» (١٢٤) .

كما حدثهم عن الأجر والثواب الذي يحصل عليه من يسر على مُعسرٍ ، فقال : «كان رجل يداين الناس ، ن فكان يقول لفتاه : إذا أتيت مُعسراً فتجاوز عنه ، لعل الله أن يتجاوز عنا ، قال : فلقي الله فتجاوز عنه» (١٢٥) .

كذلك حدثهم رسول الله - ﷺ - عن أخطاء الأمم السابقة ، حتى يجتنبوها ، مثلما حدثهم عن كيفية إقامة الحدود في الأمم السابقة ، فقال : «إنما هلك من كان قبلك أنهم كانوا يقيمون الحد على الوضيع ويتركون الشريف» (١٢٦) .

أيضاً عندما سمع رسول الله ﷺ أصوات رجلين اختلفا في آية ، فخرج عليهم - وقد بدا عليه الغضب - وقال : «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب» (١٢٧) .

(١٢٠) شرح السنة للبيهقي ٣١٣/١

(١٢١) التفكير دراسات نفسية ، ص ٢١٠

(١٢٢) نكأها : يقال : نكأت القرحة أنكأها ، إذ قشرتها . النهاية ١١٧/٥

(١٢٣) يرقأ الدم : إذا سكن وانقطع . النهاية ٢٤٨/٢

(١٢٤) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ١٠٧/١ ، باب ٤٧ ، غلط تحريم قتل الإنسان نفسه

(١٢٥) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ١٥٢/٤ ، باب ٥٤

(١٢٦) أخرجه البخاري في كتاب الحدود ١٦/٨ ، باب ١١ ، إقامة الحدود على الشريف والوضيع .

(١٢٧) أخرجه مسلم في كتاب العلم ٢٠٥٣/٣ ، باب ١ ، النهي عن اتباع متشابه القرآن .

الخاتمة

وفي نهاية المطاف يتبين أن التفكير هو الميزان الذي يوزن به الرجال ،
والذي توزن به الأعمال ، وما النية - التي جعلها الشارع أساس صلاح العمل
بقوله : (إنما الأعمال بالنيّات) - إلا حلقة من حلقات التفكير ، فهي العزم
والتصميم ، واتخاذ القرار بعد الفحص والبحث والاختيار ، كما قال
البيضاوي : إن النية عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقاً لغرض ، من
جلب نفع ، أو دفع ضرر ، حالاً أو مآلاً ، وخصصه الشرع بأنه الإرادة المتوجهة
نحو الفعل لابتغاء رضا الله وامتنال حكمه (١٢٨) .

وإذا كانت النية أساسها قبول العمل أو رده ، قبوله إذا كان خالصاً لله
تعالى ، أو رده إذا شابه عدم إخلاص ، مصداقاً للحديث (الرجل يقاتل للمغنم ،
والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه) (١٢٩) ، وفي رواية (الرجل
يقاتل حمية ، ويقاتل شجاعة ، ويقاتل رياءً) (١٣٠) ، وزاد في رواية ابن منصور
(إن الرجل يقاتل غضباً) (١٣١) .

فقد تنوعت النتائج بتنوع التفكير فيها ، والفعل واحد ، وهو الموت في
ميدان القتال . لكن إذا كان التفكير السابق للموت دنياً يصيبها ، كانت النتيجة
الدنيا ، وإن كان التفكير السابق إعلاء كلمة الله ، كانت النتيجة استشهاداً في
سبيل الله ، وجنة عرضها السماوات والأرض .

(١٢٨) فتح الباري ٣٤/١

(١٢٩) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ، ٢٠٦/٣ ، باب ١٥ . من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا .

(١٣٠) أخرجه البخاري في التوحيد ١٨٩/٨ ، باب ٢٨ ، ولقد سبقنا كلمتنا لعبادتنا المرسلين .

(١٣١) سنن سعيد بن منصور ، للإمام سعيد بن منصور الخرساني ٢/٢١١ ، باب ما جاء في الرية في الجهاد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٥ هـ .

تلك نتائج التفكير ، التفكير السليم يوصل إلى نتائج حميدة ، والتفكير غير
السليم يوصل إلى نتائج غير حميدة ، فالتفكير هو أساس النجاح أو الإخفاق ،
أساس الفلاح أو أساس الضياع .
فالتفكير هو الإنسان ، ولا إنسان بدون تفكير .

المراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - الإسلام وقضايا علم النفس الحديث ، نبيل محمد السمالوطي ، جدة ، دار الشروق ، ١٩٨٠ م .
- ٣ - إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ، للسيد محمد الحسيني الزبيدي ، دار الفكر .
- ٤ - بحث عن تقديم السمع والبصر ، للدكتور حسين رضوان اللبيدي ، قُدِّمَ إلى رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة .
- ٥ - التفكير دراسات نفسية ، د . فؤاد أبو حطب ، ود . سيد أحمد ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، طبعة سنة ١٩٧٢ م .
- ٦ - التفكير فريضة إسلامية للأستاذ عباس محمود العقاد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧١ م .
- ٧ - الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد القرطبي ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ م ، نشر دار الكتب العلمية بيروت .
- ٨ - حلية الأولياء ، وطبقات الأصفياء ، للحافظ أبي نعيم أحمد الأصبهاني ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٠ م ، نشر دار الكتاب العربي ، بيروت .
- ٩ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للإمام أبي الفضل الألويسي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٨٥ م .
- ١٠ - سلسلة الأحاديث الصحيحة ، محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي .
- ١١ - سنن سعيد بن منصور ، للإمام سعيد بن منصور الخرساني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٥ م .

- ١٣ - السنن الكبرى ، للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، طبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ، الهند ، حيدرآبار ، سنة ١٣٤٤هـ .
- ١٤ - سير أعلام النبلاء ، للإمام شمس الدين الذهبي ، الطبعة الثانية ١٩٨٢م ، نشر مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- ١٥ - شرح السنة ، للإمام المحدث الحسين بن مسعود البغوي ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣م ، المكتب الإسلامي ، بيروت .
- ١٦ - شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح سيدنا رسول الله ﷺ ، تأليف جمال الدين الأنصاري ، الطبعة الثالثة ١٩٨٤م ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق .
- ١٧ - صحيح البخاري ، طبعة دار الدعوة ، تركيا ، اسطنبول ١٩٨١م .
- ١٨ - صحيح مسلم ، طبعة دار الدعوة ، تركيا ، اسطنبول ، ١٩٨١م .
- ١٩ - صحيح مسلم بشرح النووي ، طبع المطبعة المصرية ومكتبتها ، القاهرة .
- ٢٠ - عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، للعلامة البدر العيني ، نشر دار الفكر ، بيروت .
- ٢١ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، للحافظ ابن حجر العسقلاني ، نشر مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، طبعة سنة ١٩٧٨م .
- ٢٢ - فتح المنعم شرح صحيح مسلم ، للدكتور موسى شاهين ، مطبعة الفجر الجديد ، القاهرة .
- ٢٣ - كتاب الفقيه والمتفقه ، للحافظ أبي بكر أحمد الخطيب البغدادي ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠م ، نشر دار الكتب العملية ، بيروت .
- ٢٤ - لسان العرب ، للإمام ابن منظور ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- ٢٥ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للحافظ نور الدين الهيثمي ، الطبعة الثالثة ١٩٨٢م ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

- ٢٦ - مسند الإمام أحمد بن حنبل ، طبعة دار الدعوة ، تركيا ، اسطنبول ، سنة ١٩٨٢ م .
- ٢٧ - مشكاة المصابيح ، لمحمد بن عبدالله الخطيب ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٥ م ، المكتب الإسلامي ، بيروت .
- ٢٨ - مشكل الآثار ، للإمام أبي جعفر الطحاوي ، الطبعة الأولى ، نشر مؤسسة قرطبة السلفية ، بمدينة الأندلس .
- ٢٩ - المعجم الكبير ، للحافظ أبي القاسم سليمان الطبراني ، حققه حمدي السلفي ، مطبعة الأمة ، بغداد .
- ٣٠ - المعجم الوسيط ، عني بطبعه ونشره عبدالله بن إبراهيم الأنصاري ، طبع علي نفقة إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر .
- ٣١ - المعلم بفوائد مسلم ، للإمام أبي عبدالله محمد المازري ، تحقيق الشيخ محمد الشاذلي ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٢ م ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت .
- ٣٢ - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القين الجوزية ، القاهرة . مكتبة المتنبي .
- ٣٣ - المفهم شرح صحيح مسلم ، لأبي العباس أحمد القرطبي ، للدكتور الحسيني أبوفرحه ، والدكتور الأحمد أبوالنور ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب المصري واللبناني ، القاهرة .
- ٣٤ - موارد الظمان إلي زوائد ابن حبان ، للحافظ نور الدين الهيثمي ، حققه ونشره محمد عبدالرزاق حمزة ، دار الكتب العملية ، بيروت (بدون تاريخ) .
- ٣٥ - النهاية في غريب الحديث والأثر ، للإمام مجد الدين أبي السعادات ، ابن الأثير ، نشر المكتبة الإسلامية .

